

نصوص مختارة

من كتابات الفلاسفة والمؤرخين في « التاريخ »

النص الأول

نظرة في التاريخ العام بالمعنى العلمى

لامانول كنت

مهما يكن من شأن الفكرة التى لدى المرء عن « حرية الارادة » بالمعنى الميتافيزيقى ، فان مظاهرها فى الأفعال الانسانية انما تتحدد وفقا لقوانين طبيعية عامة ، شأنها شأن أية ظاهرة أخرى من ظواهر الطبيعة . وان التاريخ — وموضوعه هو سرد هذه الظواهر أيًا ما كان خفاء عللها — ليأمل ، وهو بسبيل البحث فى الدور الذى تقوم به حرية الارادة الانسانية عامة ، أن يكشف عن وجود نظام واطراد فى مسلكها ؛ فما قد يبدو للعيان فى الأفراد أنه مضطرب لا يقوم على قاعدة يمكن مع ذلك أن ينظر إليه من جهة النوع على أساس أنه يسير على هيئة تطور — مستمر دائماً ،

(*) دعانى إلى كتابة هذا الإيضاح موضع من بين الاشارات القليلة فى العدد الثانى عشر من مجلة جوتا. Gothaische Gel. Zeit. L.J. وهى إشارات مأخوذة من غير شك من محادثاتي مع أحد العلماء فى أثناء مروري (بتلك البلاد ، جوتا) ؛ وبدون هذا الإيضاح لن يفهم لذلك الموضوع معنى (المؤلف) . [وهذا المقال كتبه كنت سنة ١٧٨٤ ، وترجمناه عن المجلد الثامن من مجموع مؤلفات كنت بالألمانية Kant's Werke برلين وليبتسك سنة ١٩٢٣ عند الناشر فلتردى جرويتز Walter de Gruyter ، وهذه النشرة هى نشرة الاكاديمية البروسية الملكية للعلوم .]

وان كان بطيئا - للاستعدادات الأصلية لأولئك الأفراد • أجل ، قد يبدو الزواج وما ينشأ عنه من ميلاد وموت - مما لحرية الإرادة فيه عند الناس أوفر نصيب - غير خاضعة لقاعدة يستطيع المرء وفقا لها أن يقدر مقدما عددها بالحساب ؛ بيد أن الاحصاءات السنوية لهذه الأمور في الدول الكبرى تدل مع ذلك على أنها تجرى وفقا لقوانين طبيعية مطردة ، مثلها مثل الأحوال الجوية : لا يسع المرء تحديد حدوثها مقدما في جزئياتها ، لكنها في مجموعها لا تتخلف عن المحافظة على نمو النبات وجريان الأنهار وما إليها من مرافق طبيعية على نحو فيه اتصال وفيه انتظام • وان قليلا من الناس ، بل شعوبا بأسرها لا يكاد يحظر بيالها أنه بينما كل منها يسلك سبيله وفق مراده وغالبا ضد مراد الآخرين ، فهو مع ذلك انما يحقق في الواقع غرض الطبيعة المجهول لديه ويستهديه في سلوكه عن غير شعور ، فتراه يعمل وفقا لمقتضيات لو تبينها لما احتفل لها الا قليلا •

ولئن كان الناس في مضطرب أعمالهم لا يسلكون بوجه عام مسلك الغريزة شأن البهائم ، كما أنهم كذلك لا يصدرون في أفعالهم عن خطة موضوعة كأنهم عقلاء ذوو نزعة عالمية ، غير أنه يلوح مع ذلك أنه من غير المستطاع اقامة تاريخ لهم تسوده خطة ثابتة واطراد (كما هي الحال بالنسبة الى النحل أو القندس) • ولا منجاة للمرء من بعض السخط حينما يشاهد أفعالهم وأحوالهم على مسرح العالم الأكبر فيجد أن تلك الحكمة المظهرية التي تتبدى في الجزئيات والأفراد تنتهي في جملتها الى أن تكون من نسج الحماقة والعبث الصياني ، بل الخسة الصيبانية وشهوة التدمير ، حتى ان المرء لا يدري ، عند خاتمة المطاف ، ماذا عساه يكون من فكرة عن نوعنا هذا الذي طالما توهم فيه من مزايا • وهنا ليس أمام الفيلسوف - ما دام لا يستطيع أن يفترض مقدما أن تمت ، بوجه عام ، هدفا « عقليا خاصا » يستهدفه الناس في أعمالهم - الا أن يبحث

ما اذا كان في وسعه أن يكتشف « هدفا للطبيعة » وغرضا في ذلك المسلك
المنافي للعقل مما هو مشاهد في شتون بني الانسان — وانا لنود أن نرى
ما اذا كنا سنصل الى افتقاد دليل الى مثل هذا التاريخ ، ثم ندع للطبيعة
من بعد أن توجد ذلك الرجل الذى يستطيع أن يصورها وفقا لهذا •
أنها أتت برجل مثل كبلر أخضع المسالك الشاذة للنجوم لسلطان قوانين
ثابتة على نحو لم يكن فى الحساب ، كما جاءت بمثل تيوتن الذى فسر
هذه القوانين وفقا لعلل فى الطبيعة عامة •

النظرية الأولى

كل الاستعدادات الطبيعية لكائن ما قد هيئت على نحو من شأنه أن
تتحقق كاملة ذات يوم وفقا للغرض المنشود • والمشاهدة الخارجية
والباطنة كلتاها تؤيد هذه الحقيقة فى كل أنواع الحيوان • فالقول
بوجود عضو لا يؤدي وظيفة ، أو نظام لا يحقق الغاية منه ، إنما هو
تناقض فى مذهب الغائية فى الطبيعة • واذا صرفنا النظر عن هذا المبدأ ،
فلن نكون بعد بازاء طبيعة تسير بنظام ، بل أمام طبيعة عابثة ليس لها
من غاية ، وهناك يحلّى العقل الهادى مكانه للصدفة الداعية الى
اليأس والقنوط •

النظرية الثانية

لابد أن تتحقق فى الانسان (بوصفه الكائن العاقل الوحيد على ظهر
البيضة) تلك الاستعدادات الطبيعية التى تهدف الى استخدام العقل ،
تتحقق كاملة فى النوع لا فى الأفراد • ألا ان العقل فى كل كائن لهو
القدرة على التجاوز بالقواعد والأغراض المتصلة باستعمال قواه الى ما فوق
نطاق الغريزة الطبيعية ؛ وانه لا يعرف لمشروعاته حدودا • بيد أنه
لا يسلك سبيل الغريزة ، بل يحتاج الى القيام بالمحاولات والممارسة

والتهديب كما يتقدم تدريجيا من مرتبة في النظر الى أخرى تعلوها . ولذا كان لا مناص من أن يجيئ المرء حياة مفرطة في الطول حتى يتيسر له أن يتعلم كيف يجب أن يستخدم كل استعداداته الطبيعية أوفى استخدام ؛ أما اذا كانت الطبيعة قد قدرت حياته زمنا قصيرا (كما هو الحاصل فعلا) ، فلعلها ، أعنى الطبيعة ، أن تكون في حاجة الى سلسلة لا نهاية لها من ألوان النتائج التي يسلم كل منها الى الآخر تغير وجوده ، حتى ترقى بذورها في نوعنا الى تلك الدرجة من التطور التي تتفق مع أغراضها تمام الاتفاق . وهذه اللحظة الزمانية يجب على الأقل أن تكون في نظر الانسان الغاية من مساعيه ، والا فان الاستعدادات الطبيعية يجب أن ينظر اليها في معظمها على أنها عبث لا هدف له ؛ وهذا من شأنه أن يزيل كل المبادئ العملية وبالتالي تصبح الطبيعة وهي التي يجب أن تؤخذ حكمها بمثابة مبدأ في الحكم على سائر المنشئات — بالنسبة الى الانسان وحده متهمة بنوع من العبث الصياني .

النظرية الثالثة

لقد أرادت الطبيعة : أن ينتج المرء بنفسه من نفسه كل ما يتجاوز نطاق التنظيم الآلى لحياته الحيوانية وألا يشارك في أية سعادة أو كمال آخر غير ذلك الذي أوجب لنفسه بعقله وهو حر من الغريزة . ذلك أن الطبيعة لا تفعل شيئا عبثا وليست مبذرة في استخدام الوسائل المؤدية الى تحقيق غاياتها . فاذا كانت قد أعطت الانسان العقل وما يقوم عليه من حرية الارادة ، فذلك دليل واضح على غرضها من تديريها . أعنى أنه يجب ألا ينقاد بواسطة الغريزة أو أن يهذب وتهايا أموراه عن طريق المعرفة القطرية ؛ بل عليه بالأحرى أن يصدر في كل شيء عن نفسه . فاكتشافه وسائل غذائه وملبسه وأمنه الخارجى وحمائته (التي من أجلها لم تعطه قرونا كالثور ، أو مخالب كالأسد أو أنيابا كالكلاب ، انما أعطته

يدين فحسب) وكل متعة تجعل الحياة محتملة ، بل فطنته نفسها وكلمته وكذلك طيب نواياه يجب كلها أن تكون من عمل نفسه • ويلوح أن الطبيعة قد وقعت هنا في أعظم شحها فقدرت زاده الحيوانى على نحو من التدقيق والتقتير وفقا لأشد الحاجات فى بدء وجوده وكأنها أرادت أن تجعل الانسان — اذا كان قد سعى ليرتفع من الفطرة الأولى الى أكبر المهارة والى الكمال الباطن لنوع التفكير وبالتالي الى السعادة (بالقدر الذى يكون به هذا ممكنا على الأرض) — تقول أن تجعل الانسان صاحب الفضل وحده ، فلا يدين به الال نفسه ؛ وكأنما قد رأت أن تقديره العقلى لنفسه أولى من توفير الهناء له • اذ فى طريق هذه الأمور الانسانية يقوم حشد من المتاعب التى تنتظر الانسان ؛ لذا يلوح أن الطبيعة لم تعمل كما يحيا الانسان سعيدا ، بل من أجل أن يتابع أعماله حتى يصبح بفضل مسلكه جديرا بالحياة والهناء • ومن الغريب هنا مع ذلك أن الأجيال السالفة يبدو أنها تدبر أمورها من أجل الأجيال التالية كما تهيء لها درجة تستطيع منها أن ترفع البنيان الذى تهدف اليه الطبيعة ؛ وأن المتأخرين وحدهم هم الذين سيكون من حظهم أن يسكنوا ذلك البناء الذى عملت على تشييده سلسلة طويلة من أسلافهم (دون أن يقصدوا الى هذا حقا) دون أن يستطيعوا المشاركة فى تلك السعادة التى أعدوها • لكن مهما يكن من غرابة هذا ، فانه أمر ضرورى مع ذلك مادام من المقرر أن نوعا حيوانيا لا بد أن يملك عقلا وأن صنفا من الكائنات العاقلة التى ستموت كلها ولكن نوعها غير قابل للفناء — سيصل مع ذلك الى تمام تحقيق استعداداته •

النظرية الرابعة

ان الوسيلة التى تتذرع بها الطبيعة من أجل تحقيق النمو فى كل استعداداتها هى التعارض فيما بينها داخل الجماعة طالما كان هذا التعارض مؤديا

في النهاية الى نظام قانوني • وأقصد هنا من قولي « التعارض » تلك الروح غير الاجتماعية عند الناس في المجتمع ، أعني القضاء على ميلهم الاجتماعي ، هذا الميل الذي يرتبط مع ذلك بمقاومة عامة يهدد تلك الجماعة دائما بالتفرقة • وهذا الاستعداد موجود بوضوح في الطبيعة الانسانية • فعند الانسان ميل الى الاجتماع ، لأنه يشعر بنفسه في مثل هذه الحالة أكثر انسانية ، أعني أوفر خطأ من نمو استعداداته بيد أن لديه مع ذلك ميلا قويا الى الاعتزال ، لأنه في الوقت عينه يجد في نفسه خاصية عدم الاجتماع ، أى الرغبة في أن يوجه كل شيء وفقا لاتجاهه الخاص ، ولهذا يجد المقاومة في كل مكان طالما يعرف عن نفسه أنه من ناحيته ذو ميل الى مقاومة الآخرين • وهذه المقاومة هي التي توقظ كل قوى الانسان ، فتحمله على قهر ميله الى البطالة ، وعلى أن يحقق لنفسه — مدفوعا بالطموح والنزعة الى التملك والسلطان — مكانة بين اخوانه الذين لعله لا يهتمهم ولكنه لا يستطيع مع ذلك أن يفرق عنهم • هنالك تبدأ الخطوات الأولى الحقيقية التي تنتقل بالانسانية من البداوة والسذاجة الى الحضارة ، والحضارة انما هي القيمة الاجتماعية للانسان ، فتنمو المواهب شيئا فشيئا ، ويتربى الذوق ، وبالتنوير المستمر تستحيل الحالة الأولية الفطرية الى تكوين نوع من التفكير تتميز فيه الاستعدادات الطبيعية الساذجة بمرور الزمان الى مبادئ أخلاقية محددة ووفقا لهذا يستحيل الوفاق الاجتماعي الذي أفسدته نزعة مرضية ، نقول انه يستحيل الى كل أخلاقي • وبدون هذه النوازع غير الاجتماعية — وان كانت في ذاتها غير محمودة — التي عنها تنشأ المقاومة التي لا بد لكل أن يلقاها من جراء ادعاءاته الأنانية لبقيت كل المواهب كامنة في بذورها أبدا نجحيا حياة أشبه ما تكون بحياة الرعاة الأركادية (١) . فيها الوفاق

(١) نسبة إلى أركاديا، وهي في الأصل إقليم في بلاد اليونان في الجزء الأوسط من البلويونير كان يسكنها الرعاة وتغني بها الشعراء الأقدمون بوصفها مقام البراءة والنعيم ؟ ولهذا اشتقت منها هذه الصفة للدلالة على مقام خيالي لرعاة أطهار يجيئون حياة البراءة والنعيم والطهارة • ومن هذا استعمالها هنا .

الكامل والقناعة والحب المتبادل : فيكون الناس مثلهم مثل الشاء يسرحونها للرعاء ، لا يكادون يقيمون لوجودهم من الوزن أكثر مما يفعله أولئك الرعاة بالنسبة الى ماشيتهم • ولن يملأوا اذن فراغ الخليفة فيما يتصل بالغاية منها بوصفهم ذوى طبيعة عاقلة • فالحد للطبيعة اذا على الشقاق الاجتماعى ، والعبث المتسابق للمتحاسد ، والطمع النهم فى التملك بل والسلطان ! فبدونها لبقيت كل الاستعدادات الطبيعية فى الانسان راقدة لم تظفر بحظها من النماء • ان الانسان يريد الوفاق ؛ لكن الطبيعة تعرف خيرا ما هو جيد بالنسبة الى نوعه : انها تريد الشقاق • هو يريد المدعة والقناعة ؛ لكن الطبيعة تريد منه أن يخرج عن الركود والتراخى والقناعة المتبذلة كما يلقي بنفسه فى حومة العمل والكفاح ، وفى مقابل هذا يستكشف الوسائل للنجاة من هذه الأخيرة ببراعة ومهارة • والدوافع الطبيعية لهذا ، والينابيع لعدم الوفاق الاجتماعى وللمقاومة المتصلة مما ينشأ عنه الكثير من الشر ، ولكنه يؤدى مرة أخرى الى توتر جديد فى القوى وزيادة فى نماء الاستعدادات الطبيعية ، كل هذا لعله اذن يكشف عن نظام أبدعه خالق حكيم ، وليس اذا من صنع روح خبيثة راحت تفسد عملها الرائع أو حملها الحسد على القضاء عليه •

النظرية الخامسة

المشكلة الكبرى للنوع الانسانى والتي أرغمتها الطبيعة على أن يجد لها حلا هى الوصول الى تكوين مجتمع مدنى (بورجوازى) يحكمه قانون عام • ولما كان فى المجتمع وحده وفى ذلك النوع منه الذى يحقق أكبر قدر من الحرية وبالتالي تعارضا مستمرا بين أعضائه ومع ذلك أدق تعيين وتأمين لحدود تلك الحرية حتى يمكن أن تقوم الى جوارحرية الآخرين — نقول انه لما كان فيه وحده يمكن بلوغ غرض الطبيعة ، أعنى نماء كل استعداداتها ، فى الانسانية ، فان الطبيعة تريد أيضا أن تهيب بنفسها هذا

كله كما تفعل بالنسبة الى كل أعراضها الأخرى ، فلا بد اذن من أن يكون
ثمة مجتمع ترتبط فيه الحرية ، في نطاق القوانين الخارجية الى أعلى درجة
ممكنة ، بقوة لا تقهر ، أعنى دستورا كاملا عادلا للمواطنين ؛ فهذا هو
أعلى واجب على الطبيعة نحو بنى الانسان ، لأن الطبيعة لا تستطيع أن
تحقق سائر أعراضها من النوع الانسانى الا عن طريق حل تلك المشكلة
وتحقيق ذلك المجتمع . والحاجة هى التى ترغم بنى الانسان على الانضواء
تحت هذا السلطان القاهر ، والا فانهم ليطلبون الحرية المطلقة من كل
قيد ، وأكبر هذه الحاجات تلك التى يحدثها بنو الانسان بعضهم لبعض
مما تجعل ميولهم أنهم لا يقدررون على احتمال العيش بعضهم مع بعض فى
حرية وحشية . لكن فى مثل هذا الميدان من نوع هذا الاتحاد بين المواطنين
نحدث هذه الميول نفسها خير الأثر من بعد : مثل ذلك مثل الأشجار فى
الغابة يسعى كل منها أن يسلب الآخر الهواء والشمس ، فيحتاج كل الى
السعى الى الآخر فيظفران معا عن هذا الطريق بنماء مستقيم جميل ؛ وعلى
العكس من هذا تلك التى تريد أن تستقل بنفسها وحريتها عن الآخرين
فتدفع بأعضائها الى طلب ما تهواه تراها تنمو نموا أعوج مضطربا عاجزا .
وكل حضارة وكل فن يزين الانسانية ، وأجل نظام اجتماعى ، هذه كلها
ثار الروح غير الاجتماعية التى تمحوج نفسها بنفسها الى التهذيب وبالتالى
تنمى بذور الطبيعة عن طريق الصناعة المبدعة تنمية كاملة .

النظرية السادسة

وتلك المشكلة هى فى الوقت نفسه أعقد المشاكل ولن يحلها بنو الانسان
الا متأخرا . والصعوبة ، التى تضعها أمام الأنظار فكرة هذا الواجب
نفسها ، هى هذه : الانسان حيوان يحتاج الى سيد طالما كان يجيأ بين بنى
نوعه . ذلك أنه من غير شك يسىء استخدام حرته فيما يتصل بأقرانه ؛
وإذا صح أنه يريد ، بوصفه كائنا عاقلا ، قانونا يضع لحرته قيودا

وحدودا ، فان ميوله الحيوانية الأنانية تقتاده الى حيث يجب ألا يذهب • ولذا كان لابد له من سيد يكسر من غلواء ارادته الأنانية ويجوجه الى اطاعة ارادة يعترف بها الجميع وهم أحرار • لكن أنى له بهذا السيد ؟ انه لايمكن أن يكون الا من بين بنى الانسان • لكن هذا بدوره هو الآخر حيوان وبالتالي في حاجة الى سيد • فليكن هذا السيد اذا من يكون ؛ لكن لاسبيل الى معرفة كيف يستطيع الانسان لأن يظفر بسيد أعلى للعدالة العامة يكون هو أيضا عادلا ؛ ويمكن أن يبحث عنه في شخص واحد أو في عدة أشخاص مختارين من جماعة • ذلك أن كلا من هؤلاء سيئىء دائما استخدام حريته اذا لم يكن ثمة أحد فوقه يحمله على الخضوع للقوانين • لكن السيد الأعلى يجب أن يكون عادلا لوجه العدالة نفسها ، وأن يكون مع هذا انسانا • ولذا فان هذه المسألة أعقد المسائل كلها ؛ ماذا أقول ! بل ان حلها على الوجه الكامل مستحيل : فمن هذا الخشب المعوج الذى من مثله صنع الانسان لايمكن أن نصنع شيئا مستقيما : فمتى يستقيم الظل والعود أعوج ! بيد أن الاقتراب من هذه الغاية قد جعلته الطبيعة من واجبا (١) • أما أنها آخر مايتحقق ، فهذا يتبين أيضا من هذا وهو أن الأفكار الصائبة عن طبيعة دستورممكن تقتضى تجربة كبيرة كونتها الأجيال المتطاولة وفوق ذلك كله ارادة طيبة مستعدة لقبول تلك التجربة ؛ وهذه الشروط الثلاثة لايمكن أن تتوافر معا الا بصعوبة جدا ، وحتى اذا توافرت فلن يكون ذلك الا متأخرا جدا بعد كثير من المحاولات التى تذهب سدى •

(١) لهذا كان دور الإنسان إذن مصطنع كل الاصطناع ، أما ماهو حال سكان الكواكب الأخرى وطبيعتهم ، فهذا مالا تعرف عنه شيئا ؟ لكن إذا لم نطنا بالطبيعة هذه المهمة خير لناطلة فلعلنا أن نفخر بأننا خالقون بأن نعزو إلى أنفسنا مكانة غير ضئيلة بين جيراننا في الكون ولعل أمل كل فرد من هؤلاء أن يبلغ مصيره كاملا في حياته ، أما عندنا نحن فالأمر بخلاف هذا إذ النوع هو وحده الذى يمكنه أن يرجى هذا (المؤلف) .

النظرية السابعة

ان مشكلة ايجاد دستور للمواطنين كامل تتوقف على مشكلة « أحوال دولية خارجية » قانونية ، ولا يمكن أن تحل بدون هذه الأخيرة • ماذا يفيد في العمل من أجل دستور للمواطنين قانوني بين أفراد من الناس ، أعنى من أجل نظام هيئة عامة ؟ ان الروح غير الاجتماعية التي أحوجت الناس الى هذا هي مرة أخرى العلة في أن كل هيئة في أحوالها الخارجية ، أعنى كدولة في علاقاتها مع الدول الأخرى ، تعمل في حرية مطلقة ، ويجب بالتالى أن تنتظر كل منها من الأخرى أن تصيها بالشر الذي حمل الأفراد وأرغمهم على اصطناع وضع قانوني مدنى . ولذا فإن الطبيعة قد جعلت من عدم احتمال الناس بعضهم لبعض ، بل والجماعات الكبرى والدول التي من هذا النوع ، تقول انها جعلت من عدم الاحتمال هذا وسيلة كما تجدد في التعارض الضرورى الوقوع بينها حالة للسلام والأمان ؛ أعنى أنها بواسطة الحروب والتسلح والاستعداد الذي لاينتهى ولا يهدأ من أجلها ، وبواسطة الأزمة التي لا بد أن تشعر بها كل دولة باطنيا حتى في وسط السلام ، انها بواسطة هذا كله تدفع الى محاولات تكون في البدء ناقصة ثم تعيد في النهاية — بعد كثير من الدمار والعتار بل ونفاذ القوى باطنيا — الى ما كان يمكن العقل أن يخبرهم به بدون هذه المحن الأليمة ، وأعنى به : أن ترتفع من حالة الفوضى القانونية والوحشية الى اتحاد بين الشعوب ، حيث كل منها حتى أصغرها تستطيع أن تؤمل في سلامتها ونيل حقوقها عن طريق هذا الاتحاد الكبير بين الشعوب (حلف أمفكتيون Foedus Amphictyony) ^(١) وعن طريق قوة متحدة وقرار يصدر وفقا

(١) أمفكتيون هو ابن هيلينوس الذي كون مجلس « الأمفكتيون » المتكون من أحكم الحكماء وأفضل الفضلاء في بعض بلاد اليونان ؛ وكان يجتمع مرتين في العام في مدينة دلفي وأحيانا في ترموبوليه ؛ وكان ينظر في جميع الأمور التي قد ينشأ عنها نزاع بين مختلف الدويلات اليونانية . وكانت قراراته تعد مقدسة ولا يمكن نقضها ، بل كان يلجأ أحيانا الى السلاح لتنفيذها . وكان مدد أفرادها اثني عشر ، ثم بلغ عددهم ٣٠ في عصر أنطونيوس ييوس .

لقوانين المشيئة المتحدة لكل الشعوب • ومهما بدا في هذه الفكرة من خيال وأحلام حتى سخر منها بوصفها كذلك رجل مثل الأبيه دى سان بيير أو روسو (ولعل ذلك لأنهم ظنوا أنها كذلك قريبة في التحقيق) : فان الخروج الذى لامفر منه من هذه الأزمة التى فيها أضر الناس بعضهم ببعض وأوقعوا بأنفسهم الشقاء ، هو الذى لا بد أن يرغم الدول على اتخاذ هذا القرار (مهما يكن شدة وقعه عليها) الذى اضطر اليه حتى الرجل المتوحش نفسه رغما عن ارادته ، ألا وهو أن يتنازل عن حرته الوحشية وأن يبحث عن السلام والأمان فى دستور شرعى •

وعلى هذا فما الحروب الا محاولات متعددة (وان لم يكن هذا فى قصد الانسان ، انما فى قصد الطبيعة) من أجل ايجاد أحوال للدول جديدة وتكوين هيئات جديدة بالقضاء أو على الأقل بتمزيق أوصال القديمة ؛ وهذه الجديدة بدورها اما أنها لا تستطيع أن تحتفظ بنفسها فى داخل ذاتها أو بعضها الى جوار بعض مما يؤدي الى مرورها بمحنة ثورات مشابهة جديدة ، وتستمر الحال على هذا الى أن نصل — عن طريق خير تنظيم للدستور المدنى من الناحية الداخلية ثم عن طريق الاتفاق العام والتقييد من الناحية الخارجية — الى حال تشبه حال الكائن المدنى العام ، حال يمكن أن تحافظ على نفسها كأنها كائن يتحرك بنفسه •

أما هل للانسان أن ينتظر من نوع التضافر الأبيقورى للعلل الفاعلية أن الدول تحاول — مثلها مثل ذرات المادة فى اصطدامها حسبما يتفق — أن تكون كل أنواع المؤسسات التى يحطمها مصادمات جديدة حتى تصل الى تكوين مؤسسة يمكن أن تبقى بصورتها (وسيكون ذلك صدفة سعيدة لا تتحقق الا بصعوبة جدا) ، أو أن عليه بالأحرى أن يظن أن الطبيعة تسلك هاهنا سبيلا منتظما فيه يرتفع نوعنا شيئا فشيئا من المراتب الدنيا للحيوانية حتى يبلغ أعلى درجة من درجات الانسانية عن طريق فن خاص مغتصب من الانسان ، وينمى فى هذا الترتيب الذى يبدو فى

الظاهر وحشياً تلك الاستعدادات الأصلية بطريقة منتظمة ؛ أو اذا فضل الانسان ألا ينتج شيء ، أو على الأقل شيء حكيم ، من كل هذه التأثيرات وتبادل التأثيرات بين الناس في مجلتهم ، وأن يبقى الأمر كما كان من قبل ولا يستطيع الانسان أن يعرف مقدما ما اذا كان الشقاق الذى هو طبيعى فى نوعنا يهيبنا لنا فى النهاية جحياً من الشرور فى مثل هذا الوضع الذى لا يزال مهذباً ، نظراً الى أنه سيقضى من جديد على هذه الحالة نفسها وعلى كل ماتم حتى الآن من تقدم فى الحضارة بنوع من التدمير البربرى (وهو مصير لا قبل للانسان به تحت حكم الصدفة العمياء ، وهو بالفعل كالحرية العدمية القانون سواء بسواء ، اذا لم يخضعها المرء الى دليل من الطبيعة يتسم بالحكمة !) — وهذا يرجع تقريبا الى السؤال التالى : هل من العقل أن يؤمن الانسان بوجود نمائية فى الطبيعة فى أجزائها ، وعدم نمائية فى الطبيعة ككل . فما فعلته حالة المتوحشين الخالية من الهدف ، وهو أنها احتجزت كل الاستعدادات الطبيعية فى نوعنا ، ولكنها أحوجتنا فى النهاية ، بما سببته من شرور ، الى الخروج من هذه الحالة والدخول فى وضع دستورى قانونى فيه تزدهر كل تلك البذور — فعلته أيضا الحرية البربرية للدول التى تم انشاؤها ، أعنى أنه باستخدام كل القوى التى للكائنات والهيئات فى اثاره الشقاق بين بعضها وبعض ، وبالدمار الذى تجره الحرب ، وقبل هذا وأكثر بضرورة البقاء فى حال استعداد من أجل هذا — عرقل نمو الاستعدادات الطبيعية فى تقدمها ، بيد أنه حدث فى مقابل هذا أن الشرور التى تنشأ عن هذا كله تحوج نوعنا الى تلمس قانون للتوازن خاص بالمقاومة — وهى فى ذاتها سليمة مفيدة — بين الدول بعضها الى جوار بعض مما ينشأ عن حريتها ، وايجاد قوة متحدة تعطى للنفس الطاقة ، وبالتالي حالة دولية للأمان الدولى العام ، ليست تخلو من كل خطر ، حتى لا تغفو قوى الانسانية ، ولكن أيضا ليس بدون مبدأ للمساواة بين الفعل ورد الفعل المتبادلين ، حتى لا يقضى كل على

الآخر • وقبل أن تتحقق هذه الخطوة الأخيرة (أعنى اتحاد الدول) ، واذن عند منتصف الطريق في تكونها فحسب ، تتحمل الطبيعة الانسانية أقصى الشرور تحت المظهر الخادع للرفاهية الخارجية ، ولذا فان روسو لم يكن على خطأ حينما فضل حالة الفطرة والوحشية ، ما دام الانسان ينسى هذه المرحلة الأخيرة التي لا يزال أمام نوعنا أن يبلغها • اننا ندين بالدرجة العليا للفن والعلم « بالحضارة » (١) • ونحن « متمدينون » الى حد مفرط في كل أنواع التهذيب الاجتماعي والتأنق في آداب المعاشرة . أما أن نعد أنفسنا بهذا « كرماء الأخلاق » ، فدون هذا لا يزال أمامنا الكثير • ذلك لأن فكرة الأخلاقية تنتسب بعد الى الحضارة ؛ لكن استعمال هذه الفكرة التي تفضي الى ما يشابه الآيين في حب الشرف والوجاهة الخارجية وحدها ، هو الذي يكون وحده التمدين • لكن طالما كانت الدول تستنفد كل قواها في أغراض التوسع العابثة المنطوية على البطش ، وبالتالي تعوق الجهودات البطيئة للتكوين الباطن لطريقة التفكير عند المواطنين ، بل وتسلبهم كل تأييد في هذا السبيل فلا سبيل الى ترجي شيء من هذا القبيل : لأنه لا بد لهذا من عمل باطن طويل لكل هيئة عامة من أجل تهذيب مواطنيها وتنشئتهم • غير أن كل خير لا يقوم على تفكير أخلاقي خير ليس الا مجرد مظهر زائف وشقاء براق • وسيبقى النوع الانساني حبيس هذه الحال حتى يقدر له أن يعمل جهده كما قلت من أجل الخروج من هذه الحالة العمائية للملابسات الدولية •

النظرية الثامنة

يمكن المرء أن يرى تاريخ النوع الانساني في مجموعة على أساس أنه تحقيق تصميم مستور للطبيعة من أجل ايجاد دستور للدولة كامل داخلها

(١) لاحظ هنا التفرقة الدقيقة بين الحضارة والمدنية ، وهي التفرقة المشهورة في الفكر الألماني . راجع كتابينا « نيشه » [ص ١٣٣ — ص ١٤٤ ، الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٩٤٥] و (ياشبنجلر) (في مواضع عدة) .

و « لأجل هذا الغرض » خارجيا أيضا ، بوصفه الوضع الوحيد الذى نستطيع الطبيعة فيه أن تنمى كل استعداداتها فى الانسانية تمام التنمية ، وهذه النظرية نتيجة لما تقدم • وهكذا يرى المرء أن الفلسفة يمكن أن يكون لها حلمها بمملكة الله على الأرض ⁽¹⁾ ؛ لكنه حلم من ذلك النوع الذى يمكن من أجل تحقيقه أن تكون فكرته نفسها نافعة وان كان ذلك من بعيد جدا ، مما يجعله اذن حلما على كل حال • انما يتوقف الأمر على ما عسى أن تكتشفه التجربة عن شىء من مثل هذا المسلك لغرض الطبيعة • وأقول : « عن شىء من مثل هذا ••• » لأن هذا المجرى يلوح أنه يقتضى قدرا من الزمان طويلا حتى يبلغ نهايته ، الى حد أنه من النذر الضئيل الذى أودعته الانسانية فى هذا السبيل لا يستطيع المرء أن يحدد صورة طريقها والصلة بين الأجزاء وبين الكل الا كما يحدد ، على أساس كل الأرصاد الفلكية التى تمت حتى الآن ، المسلك الذى اتخذته الشمس هى وكل الكواكب التى تدور من حولها فى نظام الأجرام الثابتة الكبير ؛ وان كان له أن يثق مع ذلك ، بناء على السبب العام للتصوير التنظيمى للكون وعلى القليل الذى شاهدته المرء حتى الآن ، بوجود مثل هذا المسلك أو الدورة وجودا فعليا حقا • بيد أن الطبيعة الانسانية تقتضى أنه حتى بالنسبة الى العصور المتطاولة فى القدم التى وجد فيها نوعنا ليس الأمر بعديم الأهمية مادام يمكن توقعه بيقين • ويمكن أن يحدث فى حالتنا هذه خصوصا على وجه أقل احتمالا بقدر ما يبدو أنه كان فى وسعنا وبترتيبنا العاقل أن نعجل بتحقيق هذه اللحظة السعيدة لأخلاقنا • وان البقايا الضئيلة لهذا الاقتراب (من تلك اللحظة) لعلى جانب كبير من الأهمية بالنسبة لنا • أما اليوم فان الدول قد صارت الى حال من الملابس المصطنعة بعضها ضد بعض الى درجة أنه ليس فى وسع واحدة منها أن تتوانى فى الحضارة الداخلية دون أن تفقد من قوتها وتفوذها

(1) فى النص Chiliasmus أى مملكة المسيح على الأرض لمدة ألف عام .

بالنسبة الى الأخرى ؛ وعلى هذا فانه حيث لا يوجد التقدم ، فان الاحتفاظ
بغرض الطبيعة هذا مضمون نسبيًا عن طريق النوايا المتنافسة في الطموح •
وفضلا عن هذا فان الحرية المدنية لا يمكن حقا المساس بها مساسا خطرا
دون أن يشعر بمضار هذا في كل المهن ، خصوصا في التجارة ، مما ينشأ عنه
انهيار في قوى الدولة من الناحية الخارجية • لكن هذه الحرية تتقدم شيئا
فشيئا • فاذا حيل بين المواطن وبين أن يسعى للظفر برفاهيته على حسب
هواه وطريقته ، مما لا يمكن أن يتحقق الا مع حرية الآخرين معه ، فان
هذا من شأنه أن يعتاق نشاط الحركة وبالتالي قوى المجموع • ولهذا
ينقضى التضييق على الأشخاص في أحوالهم وأعمالهم ، ويطلق العنان
للحرية الدينية ؛ ومن هنا تنشأ شيئا فشيئا — وبزوة وسورة متواثبتين —
نزعة التنوير بوصفها خيرا عظيما لا بد أن يقتاد الجنس البشرى من النزعة
الأنانية في التوسع عند سادته ، اذا شاء أن يفهم مصلحته • وهذا التنوير
ومعه أيضا نوع من المشاركة الوجدانية ، مما لا يستطيع الرجل المستنير
أن يتجنب المشاركة فيه في جانب الخير الذي يفهمه أجود الفهم ، نقول
ان هذا التنوير يجب أن يساعد شيئا فشيئا حتى يصل الى العروش فيؤثر
في مبادئها في الحكم • وعلى الرغم من أن سادة عالمنا — مثلا — ليس
لديهم حتى اليوم مال باقيا من أجل المعاهد التعليمية العامة وبالجملة من
أجل كل ما يتصل بخير العالم ، لأن كل ما لديهم قدر مقدما لحساب
الحرب المقبلة (١) : فانهم مع ذلك سيجدون أن مصلحتهم هم هي على
الأقل — في ألا يقفوا في سبيل المجهودات — وان تكن ضعيفة طويلة —
التي يبذلها شعبهم في هذا الميدان • وأخيرا ستكون الحرب نفسها ليست
فقط مصطنعة ، وفي نتائجها بالنسبة الى الفريقين غير مأمونة العواقب ، بل
وأيضا بما سيكون لها من عقابيل وخيمة تشع فيها الدولة بفداحة ديونها

(١) لاحظ لهجة السخرية اللاذعة في هذه العبارة ! •

(من أجل اكتشاف جديد) ، مما لا سبيل الى الخلاص منه — نقول ان الحرب ستكون مغامرة هائلة تمتد تأثيرها في دولة واحدة الى بقية أجزاء هذا العالم المتشابك في مرافقه الى حد أن هذه الدول الأخرى — وقد دفعها الخطر الحائق بها ، وان كان ذلك دون وجه قانوني ، تقدم نفسها وتضعها موضع الحكم بين المتخاصمين وترى من واجبها أن تكون هيئة كبرى من الدول في المستقبل على أكبر نطاق ، وهو ما لم يطلعنا العالم في الماضي على شيء من مثله حتى الآن . وعلى الرغم من أن هذه الهيئة الدولية لا توجد حتى الآن الا بصورة مشروع أولى جدا ، فقد بدأ يتردد في كل الأعضاء نوع من الشعور أن على كل منها واجب السهر على الباقيين ؛ وفي هذا ما يعطى الأمل بأنه بعد كثير من الثورات الاصلاحية ستحقق ذات يوم ذلك الهدف الذي استهدفته الطبيعة وجعلته أسمى أغراضها وهو بلوغ وضع دولي عام يكون بمثابة الرحم الذي ستتمو فيه كل الاستعدادات الأصلية في النوع الانساني .

النظرية التاسعة

يجب أن نعد القيام بمحاولة فلسفية لتصوير التاريخ العام للعالم على أساس تصميم للطبيعة يهدف الى الاتحاد المدني الكامل في النوع الانساني — نقول انه يجب أن نعد هذه المحاولة ممكنة ، بل ومفيدة بالنسبة الى غرض الطبيعة هذا . أجل انه من الغريب ، بل قد يبدو من غير الصائب في الظاهر أن نصور « التاريخ » وفقا لفكرة وهي ماذا يجب أن يسير عليه العالم اذا ما ووزن وفقا لغايات معينة عاقلة ؛ اذ يلوح أن مثل هذا الوضع لا يؤدي الا الى تأليف « قصة » . لكن اذا كان على المرء أن يقر بأن الطبيعة نفسها في مجال الحرية الانسانية لا تعمل دون خطة وغاية مقصودة ، فان هذه الفكرة لعلها يمكن أن تكون قابلة للاستعمال ؛ وسواء كنا من قصر النظر بحيث لا نستطيع

أن تثبت سر عملها ، فيجب مع ذلك أن نستعين هذه الفكرة دليلا يهديننا الى عرض هذا الخليط غير القائم على خطة من الأعمال الانسانية في جملتها على الأقل ، نقول أن نعرضه بطريقة تنظيمية • لأننا اذا بدأنا بالتاريخ اليونانى — بوصفه ذلك الذى يجب أن يقوم على أساسه أى تاريخ آخر أقدم منه أو عصريه (١) ، أو هذا هو ما يعتقد الناس — ؛ واذا تابع تأثيره فى تكوين وسوء تكوين نظام الدولة عند الرومان ، الذين ابتلعوا الدولة اليونانية ، ثم تأثير هذا الأخير (نظام الدولة عند الرومان) فى القبائل المتبربرة ، التى حطمت بدورها الدولة الرومانية ، حتى يصل الى عصرنا الحاضر ؛ بينما يضيف اليه التاريخ السياسى للشعوب الأخرى — كما عرفناه وبلغناه عن طريق تلك الأمم المستنيرة — بطريقة « عرضية » على هيئة « أحداث متناثرة » ؛ فانه يكتشف مسلكا منتظما لاصلاح نظام الدولة فى هذا الجزء من عالمنا (الذى لعله أن يشرع لبقية أجزاء العالم يوما ما) • وبالقدر الذى فيه لا يحسب المرء حسابا فى كل موضع الا للدستور المدنى والقوانين الخاصة بالمواطنين وأمور الدولة ، وفقا لما أفاده هذان (الدستور وأمور الدولة) بما فيهما من خير زمتا طويلا فى ترقية شعوب (ومعها الفنون والعلوم كذلك) وتمجيدها ، بينما عملت من ناحية أخرى بما فيها من مساوىء على انهيارها ، ومع ذلك قد بقى دائما سوار من بذور التنوير كانت تنمى فى كل ثورة حتى هيات درجة أعلى من الاصلاح : نقول انه بهذا القدر يمكن ، فيما أعتقد ، اكتشاف دليل

(١) لا يستطيع أحد أن يصدق التاريخ القديم إلا جمهور من العلماء بقى منذ البداية حتى يومنا هذا بطريقة متصلة • أما ما قبل هذا التاريخ فمضى مجهول ، وتاريخ الشعوب التى عاشت خارج ذلك التاريخ القديم (التاريخ اليونانى) لا يمكن أن يبدأ إلا منسد اللحظة التى دخلوا فيها ذلك التاريخ القديم ، وقد جدت بالنسبة إلى اليهود فى مصر البطالمة عن طريق ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة اليونانية وبدونها لا يؤمن أحد بصدق أخبارهم المتناثرة إلا قليلا • ومنذ ذلك الحين (إذا كانت هذه البداية قد اكتشفت أولا على وجه صحيح) يمكن امرء أن يعطى أخبارهم فصاعدا • وكذلك بالنسبة إلى سائر الشعوب. والورقة الأولى فى توكيد ديس (كما يقول هيوم) هى البداية الوحيدة لكل تاريخ صحيح •

لا يفيد فقط في إيضاح المجال المضطرب للأُمور الانسانية أو في التنبؤ السياسى بمستقبل التغيرات في نظم الدول (وهى فائدة استخلصها الانسان من تاريخ الانسانية كذلك ، حينما رأى فيه فعلا غير مترابط للحرية غير المقيدة بقانونون !) ؛ بل وسيكون (هذا الدليل) أيضا (وهو بالأى يمكن الانسان أن يأمله بسبب قوى ، الا اذا افترض مقديما وجود خطة فى الطبيعة) عاملا على الكشف عن نظرة مواسية فى المستقبل ، يمكن فيها تصور حال النوع الانسانى فى المستقبل البعيد ، وكيف ارتفع أخيرا الى الحال التى فيها يمكن كل البذور التى أودعتها الطبيعة فيه أن تنمو نموها الكامل وتحقق رسالتها هنا على ظهر الأرض • ومثل هذا التبرير لعمل الطبيعة — أو بالأحرى للعناية — ليس دافعا عديم الأهمية لاختيار وجهة نظر خاصة فى تأمل العالم • اذا ما قيمة اطراء جلال الخلق وحكمته فى مملكة الطبيعة غير العاقلة ، والتوصية بتأملها ، اذا كان جزء المسرح الأكبر للحكمة العليا ، الذى ينطوى على الغاية من كل هذه (الكائنات غير العاقلة) — وأعنى به تاريخ النوع الانسانى — سيظل اعتراضا دائما على هذا ، يجوزنا النظر اليه الى صرف عيوننا عنه رغم ارادتنا ؛ وبينما نياس نهائيا من أن نجد فيه غاية عاقلة كاملة ، نراه يدفعنا الى أن ننشدها فى عالم آخر ؟

لكن سىساء فهم غرضى اذا اعتقد أحد أننى بهذه الفكرة عن تاريخ العالم على أساس أن له دليلا قليلا أريد أن أحرف النظر عن ايجاد التاريخ^(١) بالمعنى المحدود وهو القائم على أساس تجريبي • انما هى فكرة عما عسى أن يجاوله عقل فلسفى (يجب أيضا أن يكون موفور العلم بالتاريخ جدا) من وجهة نظر أخرى • فضلا عن هذا يجب على التكلف

(١) هنا يستعمل كنت كلمة **Historie** بمعنى علم التاريخ ، فى مقابل **Geschichte** أى التاريخ أعنى مجرى الأحداث فى الزمان ؛ وهذه تفرقة سيكون لها خطرهما فى فلسفة التاريخ عند الفلاسفة طوال القرن التاسع عشر حتى عصرنا هذا فى الفلسفة الوجودية عند هيدجر ويسيرز راجع فى ذلك كتابنا « اشينجلر » ص ٥٤ — ص ٥٦ ط ١ القاهرة سنة ١٩٤١ •

الممدوح الذى يلجأ اليه الناس الآن فى كتابة التاريخ أن يضع موضع الاعتبار بطريقة طبيعية هذا الأمر : ألا وهو كيف أن أخلافنا سيعرفون كيف ينظرون الى عبء التاريخ الذى نود أن نخلفه لهم بعد عدة قرون . وليس من شك فى أنهم لن ينظروا الى تاريخ أقدم العصور ، الذى لا بد أن تكون وثائقه قد فقدت لديهم منذ عهد طويل ، الا من وجهة النظر التى تهمهم ، وهى ما فعله الشعوب والحكومات فى سبيل النزعة العالمية أو ما عساهم أقاموه من عقبات . والى جانب هذا ، فلعل من بين البواعث الضئيلة على محاولة مثل هذا التاريخ الفلسفى أن يحسب حساب الرغبة فى النباهة والشرف سواء عند سادات الدول وعند عبيدها وخدامها ، كما توجه الوجهة الوحيدة التى من شأنها أن تبلغ ذكراهم الماجدة الى مسامع الأجيال المتأخرة .

ترجمه عن الألمانية
عبد الرحمن بدوى

تعليق على هذا النص

للفيلسوف الإنجليزي كولنجوود في كتابه « نظرية التاريخ »

R.G. Collingwood: "The Idea of History," Oxford 1946, p.p. 93-104

كان الفيلسوف كنت قد جاوز الستين من عمره عندما قرأ القسم الأول من بحث في التاريخ وفلسفته نشره تلميذه هررد في سنة ١٧٨٤ وقد حملته هذه القراءة على أن يعمل هو فكره في الموضوع نفسه وفيما يتصل به من مسائل • ثم جمع خلاصة التفكير في النص الذي ترجمه الدكتور عبد الرحمن بدوي للغة العربية في هذه المجلة • ويرجع تاريخ نشر الأصل الى سنة ١٧٨٤ •

واننا نعلم أن كنت لم يعن يوما من الأيام بالدراسات التاريخية عناية خاصة ، ولكننا نعلم أيضا أنه ما وجه فكره لموضوع ما الا واستطاع أن ينظم أصوله وفروعه • في نتاج مرتب قيم • وهكذا نجده يستخرج من فلتير ومن روسو ومن هررد أفكارا نماها في هذه (النظرة في التاريخ العام بالمعنى العالمى » •

وأول مسألة يثيرها كنت هي التمييز بين الأفعال الانسانية في ذاتها والأفعال الانسانية كما تظهر لمن ينظر اليها • انها ، في الحالة الأولى ، أفعال تصدر عن ارادات حرة ، ولكنها في الحالة الثانية ، تجرى بمقتضى قوانين طبيعية ، وعلاقتها بتلك القوانين علاقات النتائج بمسبباتها • ونظرا لأن التاريخ يتولى سرد رواية الأفعال الانسانية وأن موقف المؤرخ من تلك الأفعال موقف الناظر الذي لا يرى الأشياء الا في ظواهرها فقد تعين عليه أن يعتبر أن الأفعال تخضع لقوانين الطبيعة •

واذ تقرر هذا ، علينا أن نسأل أنفسنا عن ماهية تلك القوانين • أهى من وضع الحكمة لهداية البشرية ؟ قطعاً لا • فالتاريخ — على ما نراه فى الواقع — سجل الحماسة والغرور والشر • وان كان هناك تقدم ما فى أحوال الانسان فالمحقق أن ذلك التقدم لا يرجع لحظة وضعها فعل الانسان • وعلينا ان أردنا أن نزيد فى عرض رأى « كنت » فى هذه المسألة بالذات أن نرجع لغير هذا النص من مؤلفاته • اننا ان فعلنا ذلك نجد ان كنت أن النظرية « هل للطبيعة غاية » ليست مما يمكن اثباته أو نفيه علمياً ولكنه يرى أنها مما يجب اتخاذه وسيلة لفهم الطبيعة •

وخطط الطبيعة للمؤرخ هى كقوانين الطبيعة لرجل العلم • وعندما يصف رجل العلم نفسه بأنه يبحث عن الكشف عن قوانين الطبيعة فانه لا يقصد بهذا الوصف انه يعتقد أن هناك شارعا منهمكاً فى وضع القوانين اسمه الطبيعة ولكن كل ما يريد أن يقول هو أن الظواهر الطبيعية لها من التكرار والاطراد المنتظم ما يقتضى منه أن يصفها بلغة المجاز • وكذلك المؤرخ عندما يتحدث عن خطط طبيعية تتجلى مراحلها وأدوارها المتعاقبة فى التاريخ لا يقصد أن هناك عقلاً اسمه الطبيعة وضع خططا تنفذ فى التاريخ ولكنه يريد أن يقول أن التاريخ يجرى كما لو كان هناك عقل من هذا النوع •

وهذا الرأى أساسى فى فلسفة « كنت » وفى فلسفة القرن الثامن عشر عموماً • وانا نعلم أن تلك الفلسفة خلطت العقل بالطبيعة • وقد حاولت أن يتغلب على هذا بالتمييز (الذى اقتبسه من ليبنتز) بين الأشياء ذاتها ومظاهر الأشياء ، فهى فى ظواهرها طبيعة وفى بواطنها — اذا استطعنا أن ننفذ إليها — عقل • وهذا — فى نظر الناقد — لا يكفى لتبرير وجهة نظر أساءت الى العلم والى التاريخ • فأما أساءتها الى العلم فلا أنها تنطوى على أن الظواهر الطبيعية التى يدرسها رجل العلم ماهى الا حجاب يخفى حقيقة روحية مماثلة لنا • وأما أساءتها للتاريخ فلا أنها تجعل من المؤرخ مجرد رجل ناظر الى الحوادث التى يصف ، كما لو كانت تلك

الحوادث تمر أمامه تباعا • وهذا غير صحيح وهو أيضا غير ممكن •
فحوادث التاريخ لا تتتابع في مواكب أمام المؤرخين • وهى لاتفعل هذا
لأن حدودها يتم قبل أن يفكر مؤرخ فيها • وبناء على هذا فهو لا يستعرضها
بل يعيد خلقها في فكره • ونقول اذن أن فلاسفة القرن الثامن عشر أساءوا
فهم التاريخ عند ما أنزلوه منزلة الطبيعة وأخضعوا تطوره أحيانا لقوانين
الجغرافيا والمناخ كما فعل منتسكييه ولقوانين البيولوجيا كما فعل هردر •
بيد أن كنت تقدم خطوات نحو نفى أو هام القرن الثامن عشر ، وذلك
أنه لم يدرس العقل في ظواهره كما لو كان طبيعة بل انه درسه في ذاته وأنه
عرف جوهر العقل بأنه « الحرية » • والحرية عنده تتعدى مجرد حرية
الاختيار بحيث تصبح حكم النفس بالنفس • وعلى هذا فالانسانية كما تظهر
في التاريخ تسير نحو أن تكون عقلا تماما أى أن تكون حرة تماما •

وبيان ذلك أنه لما كانت غاية الطبيعة من خلق أى شىء هى أن يكون ،
ولما كان العقل هو جوهر الانسان فعاية الطبيعة من خلق الانسان هى
أن يكون عقلا • غير أن لما كان من خواص العقل ألا يكمل فى حياة فرد
واحد فان الطبيعة لاتستطيع أن تستوفى غايتها من خلق الانسان الا على
تعاقب الأجيال الانسانية أو — بعبارة أخرى — لابد للانسانية لتصل
للغاية من أن تدرج فى تطور تاريخى •

وقد استطاع كنت أن يتصور أن من بنى الانسان من لم يندرج فى
هذا التطور أبدا ، وتصورهم على حال من السعادة • فهم بلا تاريخ
أو خارج التاريخ •

ويهمنا أمر الآخرين الذين احتواهم ، كيف خرجوا من اللاتاريخ
الى التاريخ ، من الركود الهنىء الى التطور المهيك • الى التقدم ؟
لقد قال الحكماء الأقدمون ان التقدم حدث ويحدث استجابة لدواعى
الفضيلة أو الحكمة •

وقال رجال الدين ان عناية الله بالانسان رفعتهم من حال الى حال •

وقال كنت ان الطبيعة استغلت مافي الانسان من شهوات واثرة
وجهل لتدفعه نحو اكتشاف وسائل التقدم • فهو في هذا من أهل التشاؤم ،
وهو أقرب الى فولتير في كاندديد منه الى لينتزر .

ولا ينبغي أن يهولنا هذا التشاؤم كثيرا ، فقد كاد ألا يكون الا مجرد
أسلوب خطابي عند الأدباء . وبقدر ما كان كنت متشائما عند كلامه على
ماضى الانسانية بقدر ما كان متفائلا عند نظره في مستقبلها !

وقد رسم كنت في نهاية مقاله مشروع « تاريخ عام » يرمى الى بيان
تطور الانسانية نحو العقل والحرية • واشترط في من يتولاه أن يجمع
بين علم المؤرخ وعقل الفيلسوف •

وقال ان المشروع ممكن التحقيق ، ولكن يجب في من يقوم به
ألا يكتفى بسرد الوقائع بل عليه أن يسر غورها وينفذ الى مواطنها •
واشترط ألا بد من قيام المشروع على وحدة مستمدة من فكرة أى ينبغي
أن يظهر التاريخ تطور شيء ما نحو غايته • وقد عرفنا — فيما سبق —
أن كنت حدد هذا التطور بأنه تقدم من لاعقل نحو العقل والحرية وان
وسائل التطور كانت الشهوات والاثرة والجهل •

وقد علق كولنجوود على المشروع عموما بأن كنت بالغ نوعا ما في
اظهار ما بين الأشياء من تضاد • ثم حدد نقده في رؤوس المسائل الآتية :

١ — التاريخ العام والتاريخ الخاص :

يرى كولنجوود أننا اذا فهمنا من كلمة التاريخ العام تاريخا يتضمن
كل شيء فهذا مستحيل ، واذا فهمنا من كلمة الخاص دراسة تفصيلات
لا تقوم على وحدة مستمدة من فكرة عامة فليس هذا بتاريخ •

والواقع أن « التاريخ العام » ماهو الا مايفهمه المؤرخ من التاريخ
وان « الخاص » ماهو الا التاريخ عند ما يتناول تفصيل شيء ما •

٢ — الفكر التاريخي والفكر الفلسفي :

ولا يرى كولنجوود أى تضاد بينهما • فنفى أنه يمكن أن يكون هناك

فكرتاريخي لا يعمل الا في ظاهر الحوادث وآخرفلسفى لايهمه الا بواطنها .

فالفكر التاريخي الوحيد الجدير بهذا الوصف هو الفكر الفلسفى .

٣ — لنا أن نقول ان التاريخ تطور أو تقدم نحو شىء . ولكن أن نسمى ذلك التقدم « خطة » وضعتها الطبيعة استخدام فى الواقع للغة

المثيولوجيا .

٤ — ان خاتمة المطاف لذلك التقدم ليست فى الاستقبال بل فى

الحال .

فالتاريخ ينتهى دائما فى حال ، وواجب المؤرخ أن يفسر كيف حل

ذلك الحال .

٥ — ان ذلك الشىء الذى يتطور نحوه التاريخ هو حقيقة اكتمال

العقل ، ولكن ذلك لا يفيد أبدا زوال « عدم العقل » .

٦ — ان الشهوات والاثرة والجهل . كل شىء من هذه الأشياء

حقيقة قام بنصيبه فى التطور التاريخي ، ولكنها لم تعمل يوما ما منفردة ،

أو غير مختلطة بفضيلة من الفضائل . وان التأمل فى أحوال الانسانية

ليحس بأن ارادة الخير (وان كانت متخبطة) والحكمة (وان كانت منخدعة)

لا يقل شأنهما فى تاريخ الانسانية عن شأن الشهوات والاثرة والجهل .

(لخص هذا التعليق ونقله للغة العربية محمد شفيق غربال)